نفي العبث عن النحاة

فى التعجب

للاستاذ عبد الحميد عنتر

مهداة إلى من يعترف بالفضل لأهله

إنى لأعجب أشد العجب ممن يعمد إلى هدم البناء النافع المتين ، بدون أن يبنى على أنقاضه بناء نافعا أو أنفع منه ! ويطول عجبى أكثر إذا كان الهادم نفسه ممن تقدم بهذا البناء النافع ، واستفاد منه فى حياته أيما فائدة !

هذه قواعد النحو العربى — ومنها التعجب — تدرس وتبحث منذ ثلاثة عشر قرنا هجريا (من سنة ٦٧ — ١٣٦٩ هـ) وقد تلقاها العلماء بالقبول ، وجعلوها نبراسا يستضيئون به أساليب القرآن ، وأحاديث الرسول ، ومنثور العرب ومنظومهم ، ويحكمونها فيما ينشأ من كلام المستعربين والمحدثين من النثر والنظم ، حفاظا على اللغة من أن تضيع ، أو تلعب بها الأهواء .

ألا تعجب معى أيها القارىء إذا أتى بعد ذلك من يرمى النحاة بالعبث والتضليل والتجهيل ، ويصف كلامهم بأنه غثاء أو هراء ، ويتهكم عليهم بأنواع الزراية والسخرية اللاذعة !

استمع إلى الأستاذ « كال بسيونى » يقول فى عدد الرسالة (٨٨١) : فى الحق أن النحاة يكلفون أنفسهم شططا ، ويرهقونها عسرا حينما يريدون أن يعللوا كل شىء ، فلا ينتهى بهم التعليل والتخايل ، إلا إلى التجهيل والتضليل ، ولم أر النحاة ضلوا فى باب من أبواب النحو ضلالهم فى باب التعجب ، وأكون مقررا للواقع حين أقول : إن واحدا منهم لم يفهم من قريب أو بعيد صيغتى التعجب . إلى أن قال ... أو لأنك لم تؤت القريحة النفاذة التى تستطيع بها أن تستسيغ هذا الغثاء ، وأن تفهم هذا الهراء ، ثم أخذ يحلل الصيغتين بتحليل يزعم أنه من عنده ، وأنه بحث علمى جديد يحسن بالقائمين بأمر النحو فى مصر أن يتأثروه ، وأنهم لو فعلوا ذلك لكان إيذانا بانبثاق فجر جديد لقواعد العربية . هذا كلامه . وأقول : لكى لا أشق على القارىء بالتطويل فى الرد أجمل الكلام فى النقاط الآتية :

قاعدة التعجب عند النحاة . فساد هذه التسمية فى نظر الكاتب والرد عليه الكاتب يأخذ رأيه من كلام النحاة ويزعم

منها باسمه . إن كل واحد منهم يبدو كأنه آدم الإنسان الأول الذى لم يشاهد الوجود إنسان قبله . وكأن قصته قصة آدم الملهم مع الملائكة على وصف القرآن الكريم « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

إن كل عبقرى آدم ، وكل من انتفع فى جو عبقرى خلال صحبته حتى تشبع برسالته هو آدم .

نعم ، آدم « النبى الساذج الطازج » الذى « علمه الله أسماء الأشياء » ولم يتعلمها من أحد غيره ، وألهمه الله إياها ولم يدرسها حتى على « الملائكة » الذين خلقهم الله من نور ، وليس وكدهم فى حياتهم إلا تسبيح الله وتقديسه ، وليس بينهم وبين الاطلاع على شىء حجاب من الحجب التى تثقل آدم الذى خلقه الله من « طين » فظلهم فى ميدانهم ، وعرف « الملائكة » أنهم لا يعلمون إلا ما علموا ، وأن خزائن الله « العزيز الحكيم » حافلة بالآيات التى لا عهد لملك أمامها المخلوقات ولو كانوا « ملائكة » إلا العجز والتسليم .

ومن هنا يظهر جانب من إعجاز العبقرية وتأثيرها فى السرائر الإنسانية المتفتحة لقبول الفيض الغامر الخالق من الشخصية العبقرية فى « صحبتها » المباشرة . كما يظهر هذا الجانب الاعجازى فى إنهاض البشرية ودفعها نحو الجمال والكمال عن طريق الصلات الشخصية المثالية ، وخصوصا أن العبقريات بين البشر نادرة ، وذوات الرسالات الكبرى بين العبقريات أندر .

(يتبع) محمد خليفة التونسى

أنه رأى جديد له ا حملته على شيوخ النحو فى مصر .

١ — قاعدة التعجب عند النحاة : يسلم الكاتب الفاضل أن القاعدة التى وضعها النحاة لما يصوغه التعجب سليمة لا غبار عليها ، وقد طبقت على جزئياتها القياسية المختلفة ، وعاد ذلك على اللغة بالخير الكثير ، ويسلم أيضا أن هذا هو المقصود من وضع القواعد ، وأعتقد أنه لم يخالف فى هذا أحد من النحاة القدامى أو المحدثين ، حتى من أهديت إليه هذه المقالة ، وهو الأستاذ الكبير إبراهيم بك مصطفى عميد كلية دار العلوم . ولكنه يصب جام غضبه المضرى على شىء واحد لا دخل له فى قواعد النحو فى قليل أو كثير . ذلك الشىء هو تحليلهم صيغتى التعجب وإعرابهما وتسمية هذا الباب بباب التعجب !

لنفرض جدلا أن النحاة أخطئوا أشنع الخطأ فى هذا التحليل وذلك الإعراب مع سلامة قاعدتهم التى بنوا عليها الأحكام النحوية . فهل هذا يستوجب من الكاتب هذه الغارة الشعواء وتلك الحملة المنكرة ؟! إنى أترك الجواب للقارىء المنصف .

٢ — إذا قلنا : ما أحسن العلم وأحسن به ، وما أقبح الجهل وأقبح به ، أو قلنا ما أجل الورد وأجل به ، وما أقبح الشر وأقبح به . فان الكاتب يزعم أن ليس فى هذه الصيغ تعجب البتة ، وإنما تفيد الكثرة والمبالغة ، ويدعى أن المعنى الأدبى لهذه الصيغ هكذا : العلم حسن جدا ، والجهل قبيح جدا ، والورد جميل جدا ، والشر قبيح جدا . وظاهر أن هذا ليس بتعجب . « فتسمية هذا الباب بباب التعجب تسمية غير سديدة » .

الرد — لم يوفق الأستاذ الكاتب لفهم معنى التعجب الذى يعنيه النحاة الأدباء — وكان النحاة فى أول عهد النحو علماء بقواعد العربية وباللغة والأدب — ومعناه عندهم كما قال ابن يعيش (ص ١٤٢ ج ٧) معنى يحصل عند المتعجب عند مشاهدة ما يجهل سببه . وذلك المعنى كالدهش والحيرة » .

ونحن إذا حللنا الأمثلة التى منع الكاتب أن تكون للتعجب وجدنا فيها كلها هذا المعنى التعجبى الذى شرحه العلماء .

فمعنى (ما أحسن العلم وأحسن به) أتعجب من حسن العلم لخفاء السبب الذى به حسن .

ومعنى (ما أقبح الجهل وأقبح به) أتعجب من قبح الجهل ، فقد غاب عنى السبب الذى من أجله قبح .

ويلزم هذا المعنى الذى شرحته معنى آخر وهو المدح فى المثال الثانى بطريق المبالغة ، ويقاس عليهما ما أجل الورد ، وما أقبح الشر . فالمعنى التعجبى كما قلت أولا ، والصيغ بهذا المعنى أو بمعنى المدح والذم خبرية لفظا إنشائية معنى ، لأن التعجب والمدح والذم من وادى الإنشاء غير الطلبى ، كما تقرر فى علم المعانى . والمعنى اللازمى يفيد المبالغة فى المدح أو الذم أو غير ذلك بحسب مواد التعجب . مثل أن تقول : العلم حسن جدا ، والجهل فى غاية القبح ، والورد فى نهاية الجمال ، والشر قبيح جدا . فالمقصود الأصلى للعربى من صيغ التعجب هو الدلالة على التعجب ، ودلالتها على المبالغة فى المدح أو الذم أو غيرهما تابع للمقصود ، والذى قلته هنا قال مثله النحاة . ينظر الصبان على الأشمونى فى أول باب التعجب . وبذا تبين أن النحاة فهموا معنى التعجب تماما ، وأنهم لم يهملوا المعنى الذى يدعى الكاتب أنه من عنده ، وأنه لم يأت بجديد يتأثره القائمون بأمر النحو فى مصر :

بقى أن رأيه الجديد بأن معمول فعل التعجب المنصوب أو المجرور بالباء الزائدة فى نحو قولنا : ما أجل الورد وأجل به مسندا اليه هذا الرأى الجديد مأخوذ من شرح ابن يعيش على مفصل الزمخشرى (ص ١٤٨ ج ٧) !! ولا أطيل بذكر النص لئلا يمل القارىء . فليرجع إليه إن شاء .

٣ — حملته على شيوخ النحو فى مصر :

عنى النحاة على طريقتهم فى البحث والتمحيص بفهم المعنى من صيغتى التعجب أولا ، ثم بإعرابهما ثانيا .

ولا زلنا ندرس النحو على هذه الطريقة . وما الذى يضير إذا أعربنا (ما) بأنها تعجبية مبتدأ ، و (أجل) بأنه فعل ماض ، وفيه ضمير مستكن وجوبا يعود على (ما) . والورد منصوب على التشبيه بالمفعول ، وقلنا فى إعراب (أجل به) أجل فعل ماض ، جاء على صورة الأمر للتعجب . والباء زائدة زيادتها فى وكفى بالله شهيدا » ضمير الورد فاعل فى المعنى ، لأنه الموصوف بالجمال الزائد . ماذا يضير لو وجهنا هاتين الصيغتين بهذا التوجيه الإعرابى أو بغيره من التوجيهات التى ذكرها النحاة بدون أن نتعرض لأساس القاعدة ؟ اللهم إن انتقاد هذا الأمر المهين هروب